وهذا يعنى تحوله، وازدياد اهتمامه بفهم القرآن فى كتابه (فهم القرآن ومعانيه) الذى يعد من أهم الكتب فى تاريخ التصوف الإسلامى، ليس لأنه تضمن كثيرا من الآراء الأصيلة فحسب، ولكن لأنه يشكل برهانا أكيدا على أن التصوف الإسلامى إنما هو إسلامى المصدر يعتمد الكتاب والسنة أصلاً له، وقد اعتمد كثير من الباحثين القدامى والمحدثين على كتاب (فهم القرآن) للمحاسبى فيما يتعلق بالتفسير، وفيما يتعلق بالتصوف وفيما يتعلق بالفكر الإسلامى بوجه عام، وهذا الكتاب هو أهم ما وصلنا من كتب الحارث المحاسبى، فهو فى مقدمته يتحدث عن منهج العقل المؤمن ويرى أن العقل الذى يزيغ ليس بعقل حق، ثم يتحدث عن الفرق الزائغة فيركز على الرافضة الذين يهاجمهم فى قولهم بتناسخ الأخبار، ثم يناقش المعتزلة فى آرائهم ويناقش مسألة النسخ، يقول فى هذا الفصل: «فأول ذلك معرفة السور المكية والمدنية، ليعرف أن ما فيها من الأمر والأحكام نزل بمكة أو بالمدينة، فإذا اختلف، كان الذى نزل بالمدينة هو الناسخ، لأنه الآخر فى النزول. حدثنا شريح بن يونس قال: حدثنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال: ما كان من حد أو فريضة أنزلها الله عز وجل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والقرون أنزل بمكة»، ثم يذكر أسماء السور المدنية، والمكية.

وهو يتحدث عن العقل فيقول: عن الله سبحانه وتعالى: «إنه خاطبهم به من قبل ألبابهم، فقال: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾، وقال: لقوم يعقلون، ولقوم يتفكرون، لأنه جعل العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار»، وهكذا يبين كيف اختص الله من خلقه ذوى العقول.

أما فصل: فضائل القرآن فيتحدث فيه المؤلف بصفاء نفس واضح، يقول:

«فإن العاقل عن الله عز وجل بدلائل الكتاب مستبصر، وبحبله من كل هلكة معتصم، ولربه بتلاوته فى الخلوات مناج لأنه بنجاة نفسه مهتم، ففزع إلى فهم كلام الرب جل وعز، ليحيى به قلبه، وينجو به من عقابه، فى يوم يندم فيه الغافلون، وينحسر فيه المبطلون، فكفى بكتاب الله عز وجل عن غيب الآخرة مخبراً، وببصائره للعوام موضحا، لأن من فهم علم الله عز وجل ذاق طعم حلاوته، وخالط فهمه لذة مناجاته».